إلهام

قصة مصرية

تأليف الأستاذ نقولا يوسف

هذه قصة دفعها إليّ صديق من أصدقاء المؤلف، ورجاني أن أقرأها وأرى رأيي فيها؛ وما سهل على كاتب من الكتاب أن يتحدث عن كتاب هو مرجوٌّ أن يتحدث عنه ويري رأيه فيه، فإن ذلك خليق أن يصبغ الرأى بلون من ألوان الهوى تختفي وراءه بعض الحقيقة؛ ولكني مع ذلك سأحاول أن أكتب، وسأحرص في هذه المحاولة أن أكون ناقداً وحسب . . .؛ ولن يفوت القارىء بعد ما قدّمتُ أن يعرف الرأى في هذا الكتاب على حقيقته، وأن يستخلصه مما قد يكون عالقاً به مما تزيّفه النفس على صاحبها لتخدعه عن رأيه . . .

وبعد فهذه قصة مصرية ألفها مؤلفها منذ إحدى عشرة سنة، ولم ينشرها إلا منذ أشهر، وكان مؤلفها يوم ألفها شاباً في الثالثة والعشرين؛ وما بدّ لمن يؤلف مثل هذه القصة في مثل هذه السن أن ينظر إلى نفسه قبل أن ينظر إلى ما يحيط به؛ وهذا شيء لا ينكره المؤلف ولا يعترف به كل الاعتراف؛ فهو يقول في تقدمة هذه القصة:

« أعددت قصة إلهام للطبع في سنة ١٩٢٧ . . . . . ؛ ثم أرغمني كثير من ظروف الحياة على أن أهمل أمرها عشر سنوات، وفي هذه السنة أعدت قراءتها، وكنت في أثناء تلك القراءة كمن يسير بين قبور عزيزة تضم رفاتاً مقدساً وذكريات تثير الأشجان

ومع أن هذه القصة لا تصور حياة المؤلف إلا أن فيها بعضاً من نفسه وتجاربه ومشاهداته ... »

أما الغاية التي يقصد إليها المؤلف من قصته فانه يقول عنها: « ... وسترى أنها قصة مصرية لا تدور حول غاية معينة من أنواع الاصلاح، يغلب عليها ذلك النوع التصويري الذي يصور المناظر والشخصيات والميول والخواطر، لا سيما ما ينساب منها أحياناً في الرأس بلا ترتيب . . . »

وهذا القول الذي يقوله هو حق إلى حد ما؛ فهو لم ينشئها ناظراً إلى غاية معينة من غايات الاصلاح وإن كان فيها كثير من الدعوة إلى الاصلاح مبثوث في تضاعيف القصة وفي أثناء الفصول بلا ترتيب ولا نظام، ونجد أكثره فيما جعل من الحوار على ألسنة أبطال القصة؛ بل لقد كان حرصه على أن يثبت رأيه ودعوته إلى الاصلاح داعياً له إلى أن يقحم كثيراً من القول في أساليب المحاورة لغير وقته، فكانت بعض المحاورات تطول أحياناً طولاً يدعو إلى الملالة ويبعد بموضوع المحاورة عن أصله وداعيه. والمحاورة كما يعرف كل من عالج القصة أو درس فنها — ليست موضعاً ملائماً للدعوة إلى الاصلاح وبيان أوجه الرأى فيه، ولكنها وسيلة من البيان في أوجز عبارة تصل بين رأى ورأى أو حادثة وحادثة مما يفيض به موضوع القصه؛ ولن يكون الحوار أبداً وسيلة إلى بث فكرة أو دعوة إلى إصلاح إلا بقدر غير ملحوظ ولا مُدرَك في جلته. إنما يكون ذلك في الحادثة لا في الحديث، وفيما يحكى لا فيما يُنطق به ...

على أننا وقد وافقنا المؤلف على أنه لم يكن له غاية من قصته في الدعوة إلى نوع من الاصلاح، نقول إن « ذلك النوع التصويري الذي يصور المناظر والشخصيات والميول والخواطر »

والنقاد ألا يتخذوا من عبارات وألفاظ مستهجنة (جاءت معبرة عن حالة عاطفية) أساساً يدعمون به حكمهم على كل من الأديبين الكبيرين. ونحن ندعوهم إلى بحث شخصيتيهما الأدبية في مخلفاتهم التي تركاها وهم أكثر ما يكونان سكونا وهدوءا فيجيء حكمهم نزيهاً معتبراً في نظر القراء ويسلمون من كثير من المهاترات التي تصيبهم بين الحين والحين

(فلسطين) علي كمال

هو فى نفسه غاية من الغايات الرفيعة يقصد إليها كثير من أهل الفن ؛ وقد بلغ المؤلف فى ذلك وأجاد وانتهى إلى غاية . ولقد كنت أقرأ بعض ما كتب المؤلف من الفصول التصويرية فى هذه القصة فأشعر بكثير من اللذة والاعجاب ؛ وأجل ما قرأت من هذه الفصول وصفه فى الفصل الأول عيد « شم النسيم » كما يحتفل به كثير من طوائف المصريين فى الريف والحضر ؛ وفى الفصل الرابع وصف حياة الشاب المزيب تتراى الآمال حوله فى الزواج والمصاهرة ، وتتمرك حوله أمانى الأهل والأصدقاء ؛ وفصول أخرى لا تقل عن هذين الفصلين جمالا وروعة

أما عناية المؤلف بالفن ومقدار توفيقه فيه ، فما أريد أن أسهب فى الحديث عنه ؛ فان من الظلم أن تكلف فتى فى الثالثة والعشرين أن يكون له من السيطرة على نفسه وعلى وجدانه ما يساعده على حبك قصة طويلة كهذه القصة على ما يقتضى فن الرواية على وجهه ؛ إذ كان كل هم الشاب فى مثل هذه السن أن يحشد كل خواطره وأمانى نفسه ومصورات خياله فيما يكتب ؛ فانه ليصعب عليه أن يغفل معنى أو فكرة أو حادثة تُلح على نفسه ؛ ومن هنا جاءت قصته — كما قرأتها — وكأنها فى نفسى قصتان لا رابطة بينهما إلا فيما تبدأ القصة وفيما تنتهى ؛ أما فى العرض وفى تسلسل الرواية فإن القارئ يكاد يحس فى أكثر من موضع أنه انتقل من قصة إلى قصة فلا يشعر أنه فيما كان فيه إلا حين يوشك أن يبلغ نهاية الفصل . وذلك شىء حقيق بالنظر والتدبر عند من يريد أن يكون قاصًا موفقاً ؛ فان أول شرط القصة هى أن تتسلسل بحوادثها تحت عينى القارئ حتى تبلغ بذلك أن تنقله من جو إلى جو فيسير فى قراءتها وكأنه يعيش بين أبطالها وعلى مقربة من زمانها ومكانها ؛ وما أنكر أن المؤلف قد بلغ إلى ذلك فى بعض الفصول ولكنه لم يبلغ إليه فى جملة القصة ؛ على أن هذا التنافر فى موضوع الرواية لا يستمر إلى نهايتها ؛ فما هو إلا أن ينتهى القارئ إلى حدّ ما ثم تسير القصة إلى خاتمتها طبيعية لا تكلف فيها ولا اصطناع ، حتى تنتهى إلى نهايتها فى حيلة موفقة

على أن هذه القصة — وهى مصرية المغزى والموضوع فى جملتها — تبتعد كثيراً فى بعض فصولها وحوادثها عن المألوف من عاداتنا وما نعرف ، فهى لا تصوّر صورة مصرية عامة يراها كل أحد ؛ ولكنها صورة خاصة قامت فى نفس كاتبها فى يوم ما فرآها على التعميم حقيقة بالتسجيل فى قصة يريد أن يجعل بها صورة لبعض ما فى مصر ؛ ولقد كنت أريد أن ألخص موضوعها فى هذا الفصل لأعرضها عرضاً جلياً لمن يريد أن يعرف ، ولكنى أوثر أن يكون تعريفى بها من بعيد حتى لا أقطع الطريق على من يريد أن يقرأها بقلم مؤلفها ليعرفها العرفان الحق

أما أسلوب المؤلف فى الأجزاء فهو الأسلوب السهل الطبيعى ، لا تكلف فيه ولا صناعة ؛ وفيه إلى ذلك روح وعاطفة وقلب نابض ؛ تقرؤه فتعرف نفس كاتبه بما تجيش به من أمانى وآلام تراها مصوّرة أدق تصوير وأبرعه ، فكأن وراء كل عبارة قلباً ينبض ، وكأن وراء الظلال من كل فصل نفسية سامية تؤمن بالمثل الأعلى إيمان الرأى والعقيدة ، وتقف جهدها على تحقيق المعنى الانسانى العام فى كل نفس وفى كل إنسان ؛ فهو أسلوب قصة ، وهو صرخات نفس حانقة ، وهو غيظ حبيس يتفجر نثراً وكتابة ، وهو أمانى وأحلام ، وهموم وأحزان ؛ وهو غبطة ورضا ، وسخط وألم . وإن فيه لمانى جديدة وفكراً جديداً ...

ولكن ذلك كله لا يحمل الناقد المنصف على تجاهل ما فى أسلوب المؤلف من غلطات فى اللغة والنحو وفى استعمال الكلمات كان حرياً أن يتنزه عنها ؛ ولو أنها غلطات تعد لما كان من حق أن أشير إليها هذه الاشارة ، ولكنها غلطات عامة ومتكررة بحيث لا تكاد تخلو صفحة من غلطة ... وإنى وقد قرأت للمؤلف وتذوقت فنه وأدبه لأجد من الخيانة أن أغض النظر عن هذه الغلطات ؛ فان كاتباً مثل مؤلف هذه القصة حقيق بأن يكون فى غد من أصحاب القلم والفكر فى هذا البلد لو كان أحرص من ذلك على لغته وعبارته ؛ وإن ذلك الأمل فى مستقبله الأدبى ليحملنى على أن ألفته إلى ذلك ليستكمل أدواته ويمهد لمستقبله

* * *

أما بعد فانها قصة مصرية ، وما تزال القصة الطويلة فى العربية شيئاً نحاوله فلم نبلغ فيه حد الكمال أو ما يقرب منه ؛ وإنه لفن رفيع يستحق العناية من أدبائنا ليسدوا نقص العربية فى هذا الباب ؛ فما يغيب عنى وقد ذكرت ذلك أن أثنى على المؤلف الفاضل لهذه المحاولة ؛ وما يغيب عنى مع كل أولئك أنها قصة ألفها مؤلفها منذ إحدى عشرة سنة وما يزال يومئذ شاباً حدثاً يخطو خطاه الأولى إلى هذا المترك الأدبى ؛ فاذا كنت اليوم أرى فيها مايستحق اللاحظة والتعليق ، فانها ملاحظات على الأديب الناشئ نقولا يوسف الذى ألف قصة (إلهام) سنة ١٩٢٧ وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ؛ وهو عندى غير الأديب الفاضل (الأستاذ) نقولا يوسف فى سنة ١٩٣٨ ، الذى عرفه القراء فيما أنشأ بعد ذلك من مؤلفات لها خطر ومقدار وهو مع ذلك غير الأستاذ نقولا يوسف الذى نرجو أن يكون فى غد ...

(س)